

الطرفان

قصة بقلم هاشم الامين

كنا في « الدائرة » بضعة عشر موظفاً . وكانت وظيفتنا — أو هكذا كان يجب ان تكون — إنصاف المغبونين في قيد الاحصاء الذي اجري ، في اول الحرب الكونية الثانية ، لتوزيع الخبز توزيعاً مقنناً .

اما وظيفتنا الفعلية فكانت « اقناع » المغبونين بانهم غير مغبونين ..

وكان اكثرنا من الطلاب الجامعيين الفقراء ، قد استعانوا بهذه الوظيفة على مشقات الدراسة ونفقاتها؛ فهي لديهم دار .. ولذلك ما كانوا اختصاصيين بـ « علم » الوظيفة — هذا السحر الذي يقلب ، إن شاء ، حق فريق من الناس إلى باطل ، وباطل فريق آخر الى حق . فكان طبيعياً ان تنتهي المناظرة ابدأ بيننا وبين المراجعين باقتناعنا نحن انهم مغبونون ..

وهكذا كنا ابدأ في مهمة اقناع .. اما اقناع الجوعانين بانهم شعبانون ، وإما اقناع رؤسائنا ان الجوعانين جوعانون . وكلا الفريقين لا يقتنع طبعاً . فلا بد لنا ابدأ من سواد الوجه — سواد الوجه امام الشعب او امام رؤسائنا . كنا « ستاراً » يسدل بين الشعب وبين ضابطين عسكريين يمثلان دولتين اجنبيتين محتلتين وموظف وطني كبير، يرئسون جميعاً « المصلحة » . وكان للدائرة مدخلان مختلفان . احدهما يفضي الى امام « الستار » والآخر إلى ما وراءه . وكان كل من الداخلين يعرف مدخله : الاقطاعيون وارباب البوايك والمطاحن الكبيرة يقبلون بثيابهم الحريرية والشالات الهندية والدراعات المقصبة ، والوجوه المكتنزة ، بسياء فيها استهتار البطر ، وشموخ الآمن مؤاخذه القانون وسلطة الساطان ، إلى غرفة من غرف الرؤساء الى ما وراء « الستار » ، حيث تعقد صفقات تهريب القمح الى تركيا ، ومنها الى المانيا الهتلرية ، وتدرس وسائل حجب القمح عن يد الشعب لاحتكاره . وابناء الشعب ، الفقراء والمتوسطون ، يقبلون الى امام حاجز خشبي يفصل بيننا وبينهم — الى امام « الستار » . يقبلون بعضهم متهمب ، وبعضهم ساخر ، وبعضهم مرتبك حائر لا يدري ما يصنع .

ولم يكن بد من مجيئهم الينا كل يوم بالعشرات . ولم يكن بد من رجوعهم عنا فارغين حتى من خفي حنين . فلم تكن لهم وسيلة للاتصاف غير وسيلة واحدة ، هي ان يغلقوا المدخل الآخر من البناية .

ظل هذا المشهد يتكرر مألوفاً مدة طويلة . وكان القمح ينفد شيئاً فشيئاً ، فيزداد الخبز رداءة بما يستعاض به عن القمح من حبوب واشياء اخرى .

وجاءني يوماً واحد من رفاقي الموظفين ، كنت لاحظته ابدأً دقيقاً متأنيماً ، يستطلع ما وراء الظواهر ؛ فهو يخلو من تلك السياء التي تسمح اكثر الموظفين بمسحة المكتبة وحركاتها ، من اعمال مكتتبية رتيبة لا روح فيها . قال :

— اني لأعجب ! كيف تدوم مثل هذه الحال ؟

فقلت :

— وما هو وجه العجب ؟ احكام عرفية ، وحاكم قروي مسلح ،

وشعب اعزل !

— اجل ! وهذا هو الذي يحملني على العجب . فقد جعلتني طبيعة عملي اعلم وأحس وأرى ما لا عهد لي بمعرفته قبل اليوم من عنف وروعة في تعارض مصالح الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة ، تعارضاً ملجأ لا سبيل الى الصبر عليه ، إذ لا وجه يوفق بين المصلحتين .

إذن فكيف تدوم هذه الحال ؟ اكبر ظني انها لن تدوم ، إلا اذا تغيرت طبيعة الأشياء . فالماء المنحدر صيباً لا بد له ان ينحدر . فاذا اعترضه سد فلن يلبث السد والماء معاً إلا ريثما يصبح الماء شيئاً آخر غير الماء — ولا بد له ان يصبح شيئاً آخر غير الماء ؛ يصبح قوة كاسحة جارفة تأبى طبيعتها السدود وتقوى على خرقها .

وصفني لحظة ، ثم قال :

— هل بلغك ان المدينة تبنت الليلة وليس في المصلحة شيء ، تمون به الأفران لخبز الغد ؟ فقد نفذ القمح ، وظل الرؤساء الثلاثة مجتمعين اليوم ساعات لتلافي الأمر ، فلم يجدوا حيلة لتموين

المدينة بالخبز إلا الفاصوليا !

— الفاصوليا ؟ !

— اجل . ففي المستودعات كميات كثيرة من الفاصوليا البيضاء ، ارسلوها الى المطاحن . وستأكل غداً خبزاً مصنوعاً منها .
وظهر لون الفاصوليا في الخبز ، في غد ذلك اليوم ، ابيض زاهراً ، كأنما اتخذ الخبز من لباب القمح ، حتى عجب الناس ، ولبثوا يتساءلون عن السر : يا هل ترى لماذا عادت الحكومة فجادت عليهم بخبز من القمح الصافي ؟ !
وأقبلوا على الخبز إقبال المشتاق . لكن سرعان ما انكشفت لهم الحقيقة ، بما وجدوه في الخبز من جشوبة ، وما عانوه في بطونهم من مغص ..

فكان الغضب مضاعفاً : لم يكف ان الخبز مغشوش ، حتى جاءهم بهذا الوجه المخادع ، وكأنه يسخر منهم ايضاً !
لم استطع ان أفهم على وجه الدقة كلمة صاحبي : « لن يلبث السد والماء معاً إلا ريثما يصبح الماء شيئاً آخر غير الماء — ولا بد له ان يصبح شيئاً آخر غير الماء — » إلا في ذلك اليوم ، يوم الخبز المصنوع من الفاصوليا .

صحيح ان صنع الخبز من الفاصوليا لم يكن امراً مستغرباً في تلك الأيام ؛ فقد طالما أكل الناس الخبز مزوجاً حتى بدقيق الحصى والتراب . غير ان خبز ذلك اليوم كان آخر قطرة تنقص الماء المحجوز وراء السد ليصبح « شيئاً آخر » غير الماء .

★

كانت بناية مصلحة الاحصاء مطوقة بالجماهير الهائجة . ونحن في داخلها لاثذون بإحدى الزوايا ، وبيننا رئيسنا ، وهو احد الضابطین الأجنيبين ، لا يستقر نظره على شيء ، مغبر الوجه ، متقلص فم تتلاحق عليه ابتسامات مترججة صفراء . واصوات الحجارة ، وهي تضرب الجدران والأبواب ، تتوالى على اسماعنا . وتطلعت أفنقش عن صاحبي ، ذاك الموظف الذي حدثني بالأمس حديث السد والماء ، فما وجدته . وراحت عيناي تبحثان عنه على غير طائل . فخشيت ان يكون قد اصيب بسوء ، واندفعت أبحث عنه في الأماكن الأخرى من البناية ، حتى افضيت الى ما وراء الباب الخارجي ، فإذا بصاحبي متساقاً شبكاً ، يلتزم حواجزه بكل جسمه بعصبية ظاهرة ، ينظر الى الخارج من ثقب في الشباك .

فلما أحس بي التفت ، فأبصرت وجهه يغلي انفعالاً ، ويشرق

بغبطة طاغية عنيفة . ثم سرعان ما نط الى جانبي ، فاخطف يدي بيده وجرتني ركضاً صوب السلم .

— الى اين ؟ صحت به

— الى السطح نتابع سير المعركة .

— مجنون ؟ !

— صدقني اني من الاطمئنان بحيث أو من ان حجباً قد أقذف به من الشارع ، لن يس جسمي ، وإنما هو يرتد عني الى احدى النوافذ ، فلا يزال يلف ويدور ، حتى يستهدي الى رأس ذلك الضابط الأحمق المتغطرس فيشجّه دوني . اجابني بذلك ، وكلماته تقور من بين شفثيه فوراناً حاراً ، ووجهه ضاحك يتدفق بانفعال عنيف ، وانفاسه تتلاحق سريعة .

ثم قال : اريد ان أرى من على السطح طريقة امنص بها الى الشارع ، فلا يشك بي المتظاهرون ، فأرمي معهم دلو بمجبر . فانطلقت في اثره ، نصعد السلم سريعاً ، وقد بعث ثورته الخالصة في قلبي فيضاً من روعة واحترام .

وعلى السطح جثونا نتطلع .

شاهدت سيلاً متدفقاً جارفاً ، إلا انه من بشر .

فمن مخارج الاحياء البعيدة ينسرب الناس افراداً وجماعات صغيرة متفرقة ، متجهة صوب الساحة العامة ، حيث تقوم الدوائر الرسمية . فاذا وصلت الى مركز دائرتنا ، وهي خارج الساحة العامة قريباً منها ، اتصل بعضها ببعض ، فاذا هي طوفان طاغ ، يحيط بالدائرة ، ثم يفيض فائضه عنها منجدرأ نحو الساحة العامة ، فدائرأ بها من اكثر جهاتها .

وتتدافع امواجه الى مداخل الساحة ، فيحجزها البوايس وسلاحه .

وأبدأ لا تزال تلك الشعب الضيقة البعيدة تمد الطوفان بتلك الروافد .

والتفت الى جانب فرأيت جماعة كبيرة من اطفال حفاة انصاف عراة ، جمّت ، حتى الروعة ، مظاهر الحماس والشجاعة فيهم ، ما شوّه الفقر والضعف من اجسامهم وثيابهم ، منتشرين حول بناية لم يتم بناؤها بعد ، يجمعون في ذيلهم كسارة حجارة البناء ، ثم يركضون بها صوب الرجال ، فيفرغون « الذخيرة » بين أيديهم ، ثم يعودون ركضاً ليجمعوا غيرها .

وتتساقط الحجارة مثل المطر على الساحة ، وتندفع وراءها امواج الطوفان ، ولكنها لا تلبث ان ترتد عن البوايس وسلاحه .

وتطلعت الى أقرب مخرج من مخارج الاحياء البنا - الى زقاق ضيق انعقدت فوقه قناطر تراحت وتعارضت على غير نظام، حشرت فوقها كيفما اتفق غرف لزقت بالأبنية تازيقاً، مما يحتمل به الفقراء لتكبير بيوتهم الضيقة، وتعلقت خصاص خشبية توشك ان تسقط، وقامت على جانب من رأسه بركة صغيرة من حجر اسود لا تنفك تطفح طفحاً خفيفاً بماء قذر ينصب فيها، وامرأة كهلة سمينة سوداء تطلع من رأس الزقاق كأنها قذف بها من منجم فحم، وقد ردت برقعها الاسود عن وجهها فطرحته على رأسها، وفتحت ملائمتها عن صدرها، فألقت بطرفها وراء ظهرها.

وما هي إلا ان لاحت لنا حتى تدفقت وراءها نسوة على شكلها. وأوحى إلي منظرهن وزيتن اني اشم رائحة مثل الرائحة التي تفوح ابدأ من ثياب الحجازات.

كانت قائدة النسوة تصرخ بكلام لم أتبينه، فتردد النسوة كلامها بأعلى صوت، وهن يشبّرن بأيديهن، ثم يصرخن جميعاً بولولة خفيفة.

لم تكن الجرأة والمظهر الشعبي الغاضب هو وحده مجلى هذه اللوحة، بل زوّق اللوحة ايضاً رنة خاصة في اصواتهن، فيها مكر من محكوم صحل مرة ان هزاً من ظالمه ويشمت، إذ هو يستطيع ان يقول له كل شيء، فلا يخشاه.

ومن احد اطراف المدينة لأح لي فلاح هرم يسوق حماراً عليه سحارتان. وما هي إلا ان حاذى طرف المظاهرة، حتى أوقف حماره، ووقف لحظة يتطلع، ثم سرعان ما مال نحو المتظاهرين، فأفرغ السحارتين بين ايديهم - « ذخيرة » من البندورة...

— هؤلاء هم « الغوغاء » ! أما « السادة » الفتيان فأولئك الذين نهوهم !

قال لي صاحبي ذلك، وهو يدور برأسه في كل النواحي، يقلّب عينيه بين امواج الطوفان، ويتلمس طريقة يملص بها الى الشارع، الى المظاهرة.

وفي وقت معاً شاهدنا قائد الدرك يقبل من ثكنته، من وراء المظاهرة، حتى يصل الى الطرف الذي يقابله منها، فيشتق لنفسه طريقاً بين المتظاهرين، وهو يجادتهم ويلطفهم وييسم لهم. فأدركنا من ذلك انه يرجو ان ينهته من غضب الجماهير. ثم جعل يتقدم بين الناس، في مدخل الساحة العامة،

الواقع امام دائرتنا. وكان أعزل بلا حرس مباغلة منه في التجنب الى الشعب، فلا يقابل إلا بصمت حزين مترفع، أو نظر شزر، أو إعراض غاضب، حتى استقر في وسطهم، وقد استطاع ان يستدرج بعضهم الى الحديث، فاستداروا به يحاورونه ويحاورهم، ويحاول ان يباسطهم ويضاحكهم.

وطال الوقت على المتظاهرين، وبلغ الموقف ذروته، وبدأ ان لا بد من حدوث شيء حاسم، كانت طلائعه في اشتداد ضغط الجماهير على البوليس، فأدرك ان الموقف مقلت من يده، فطفق يطلق الرصاص في الفضاء زيادة في الارهاب. وأطلق العصي وأعقاب البواريد في اجسام المتظاهرين إطلاقاً شديداً، فرأينا وجوهاً ورؤوساً تنهشم، وآخرين يغمى عليهم من شدة الضرب.

ثم انحدرت رصاصات في قلب المظاهرة، وتضرجت الأرض بالدم، وأخذ الناس ينقلون جرحاهم من المعركة..

واشتد رمي دائرتنا بالحجارة، وتحطم كثير من زجاجها، واصبح الذين كانوا في داخلها مرمى مكشوفاً للحجارة، فصعدوا الى السطح، حيث الحظر الآن اقل. وبصورة عفوية انضم بعضنا الى بعض في مكان واحد من السطح، وقفنا فيه نشرف على المعركة، تاركين وراءنا الضابط الاجنبي يقف وحده بعيداً عنا، ويداه معقودتان وراء ظهره، وعلى فمه المتقلص تتلاحق تلك الابتسامات المتوجرجرة الصفراء.

وبدا أن الجزيرة امر محتوم. فالبوليس يطوق الساحة، وقد لبس للمعركة كل ما يملك من سلاح. وحرابه مشرعة تتلمظ الى الدماء البريئة، ورصاصه يستشري حقداً.

كانت الجماهير قد ارتدت، ولكن على غضب لا صبر عليه. فبادرة البوليس، وان منعت اتصال الاصطدام، فقد بلغت بموجة التوتر الى اقصى شدتها.

وكان قائد الدرك لا يزال بين المتظاهرين، وقد بدا ان لا بد له من الانسحاب.

لكن ما لبثنا ان رأينا بضعة شبان ينقطعون عن الجمهور، فينفردون ناحية، ويتداولون بينهم حديث لحظة، يطلقون بعده قهقهة فوز عالية. ثم عادوا ركضاً فشقوا طريقهم بين الجمهور، الى حيث يقف قائد الدرك. فحاولوه على اكتافهم، واخذوا يعيّنونه مندفعين به الى مقدمة الجمهور، الى الساحة العامة..

وسرعان ما ملعت في اذهاننا الاحبولة التي نصبها الشباب

توطئة :

نستطيع ان
نقول ان اي
حرب لا يتاح لها
ان تمر دون ان

الفرقة في الادب

بقلم احمد كمال زكي

ودورائها حول
محورها وحركتها
حول الشمس
فانما وبذلك كثير
بما أقامه القدماء

من معرفة ؟

وعصر النهضة في اوربا لم
يكن إلا نتيجة للحرب التي دارت
بين الأشراف والطبقات المتوسطة،
فاتسعت المدن وضؤل سلطان
الريف ، وضعفت الأرستقراطية
وقويت البرجوازية . ومن هنا

« ليس هناك شيء ألزم الى الادب كفنان من البيئة
التي يضطرب فيها ونجاحه في ما يكتب قائم على فهم
حقيقتين هامتين : اولهما استبطان العلاقة بين اسباب
الحياة وثانيهما وعي الفرد بما فيها من إثارة . وعن هاتين
الحقيقتين تنبع مسؤولية الادب - او الفن بعامه -
الاجتماعية . »

تختلف من المشكلات ما لا يمكن
للمجتمع ان ينتهي الى حله بسهولة،
وهي مشكلات تعرض للفن والعلم
والفلسفة والاقتصاد كما تعرض
للدن والعرف والتقاليد وغيرها
من تلك القيم التي نحرص على
تقديسها . إننا لنبالغ ولا نسرف ولا

نفهم لماذا تقشع سلطان العرب عن الاندلس ، ثم لماذا نشبت
الثورة في فرنسا وفي غيرها من ممالك اوربا !

ان تاريخ هذه الفترة لم يتضح إلا على نحو ناقص ، او قل إن
التسلسل التاريخي لم يفهم إلا فهمًا ناقصًا . ولو احس اولو الامر
وقدذاك ان هذه الحركات جميعاً ليست إلا صدى للفردية ، او
للعصامية بعبارة اخرى ، لجنبوا المجتمع كثيراً من تلك الحروب

نشبت ، ولكنا نقرر واقعاً يؤيده التاريخ وتقرره حياتنا الحاضرة .
ولماذا لا نقول مثلاً ان الحروب الصليبية لم تكن دينية بقدر
ما كانت اقتصادية ، استهدفت بها اوربا فتح اسواق لتجاريتها؟
الا ترى ان العرب بعد فشله الذريع وبعد ان توطد سلطان
العرب في منطقة الشرق الأوسط هرع الى البحث عن طريق
آخر للتجارة؟ وانتهى به الأمر الى الكشف عن كروية الارض

والا وقعت في طوق من المتظاهرين ، بين الذين اخترقوا
الساحة ، وبين الذين لا يزالون في خارجها ، وقد اصبح المتظاهرون
يستطيعون مقابلتها بالسلاح الذي اخذوه منها .

وهكذا اخذت قوات البوليس تنسحب مسرعة الى
تكناتها . ثم سرعان ما اصبحت الساحة العامة ، وامواج الطوفان
تتلاطم في مداها الواسع ..

صار احتجاج الشعب حقيقة واقعة صارخة ، لا يستطيع
تجاهلها . واصبح الشعب فوق الأحكام العرفية ، لا بل ان
الشعب كان قد وضع نفسه في موضع عطل الاحكام العرفية تعطيلاً .
فلم تجد السلطة مخرجاً إلا باعلان استقالة الوزارة حالاً ،
والقبول بانتخاب لجان شعبية تمثل احياء المدينة ، للنظر معها في
تأليف وزارة جديدة ، على ان تتولى تلك اللجان اجراء احصاء
جديد ، وان تعطى صلاحية توزيع القمح وتحديد كميات الطحين
للافران ، حسب احتياج الاحياء .

وهكذا كان .

للبوليس ؛ لقد جعلوا من قائد الدرك سياجاً يتقون به الرصاص ،
فيخترقون نطاق البوليس ولا يستطيع استعمال سلاحه لمنعهم ،
خوفاً من اصابة القائد .

كانت المفاجأة اسرع من ان تدع لقائد الدرك او لغيره من
رجال البوليس وقتاً لعمل شيء . فتراخت ايديهم بالبواريدي في
ذهول وارتيباك . وفي مثل لمح البصر كان الشبان قد اخترقوا
نطاق البوليس .

لم يعلم ، اول الامر ، بما حدث غير الراقين قريباً من مكان
الثغرة التي فتحت في الساعة . وكانت سرعة الخاطر عند الشباب
الذين تمكنوا من فتحها امام الجماهير في تلك الساعة العصبية ،
كهرباء سرت في نفوسنا فهزتها ، فانطلقت من حناجرنا جميعاً
صيحة ابتهاج وارتياح ، ونحن نشرف من حافة السطح على
الشارع ؛ فتطلع الينا الجمهور متسائلاً ، فأخذنا نشير لهم الى مدخل
الساحة ، الى الثغرة ، حيث اخذف طلائع الطوفان تتدفق الى
الساحة .

وفي غمرة المفاجأة كان كثير من رجال البوليس قد جرد
من سلاحه ، واصبحت القوة بكاملها مضطرة الى الانسحاب ،

هاشم عمن الامين